

التنافسُ على الملاحة البحرية في المحيط الهندي (1550 - 1860م)

باتريشيا ريسُو ■

1. الأوروبيون في آسيا:

تعلّم الأوروبيون في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر ما كان الآسيويون قد تعلموه من قبل، بشأن استخدام أنظمة هبوب الرياح في المحيط الهندي، كما تعلموا قبل ذلك بقليل الأمر نفسه في المحيطين الأطلسي والهادي. وقد أعطتهم هذه المعارف ميزةً على المستوى العالمي؛ لكنهم دخلوا المياه الآسيوية قبل أن تتجاوز التكنولوجيا الأوروبية البحرية نظيرتها الآسيوية، وقبل الثورة الصناعية بالقارة الأوروبية. وفي ذلك الوقت كانت القدرات الإنتاجية الصينية - وربما الهندية - ما تزال متقدمةً بكلّ المقاييس على القدرة الإنتاجية الأوروبية. وكان عدد السكان في آسيا كبيراً نسبياً، كما كانت فيها ثقافات حَضْرِيَّة عريقة، ولم يكن الدور الذي سيلعبه الأوروبيون في آسيا معروفاً أو متوقَّعاً.

■ هذه ترجمةٌ للفصل الخامس من كتاب باتريشيا ريسُو: التجار والإيمان ثقافةً المسلمين وتجارُهم في المحيط الهندي، 1995، 2009م؛ ص ص 141-168.

عندما وصل الأوروبيون إلى آسيا نهاية القرن السادس عشر، كانت هناك أربعة أنظمة للحكم قوية وتبسط نفوذها على المناطق الداخلية بعيداً عن السواحل في آسيا، وهي: إمبراطورية المينغ في الصين، والمغول في الهند، والصفويين في إيران، وأخيراً الإمبراطورية العثمانية. وفيما عدا الإمبراطورية الأولى (الصينية)، كانت الثلاث الأخرى إسلامية. وقد توسّع نفوذ العثمانيين السياسي والعسكري حتى وصل إلى فيينا. وكان الأوروبيون يرون أنّ التوسّع العثماني الذي تحركه الدوافع الدينية الإسلامية يشكّل تهديداً عسكرياً وثقافياً لقلب أوروبا. وكانت للأببيريين (بإسبانيا والبرتغال) ذكريات وتواريخ مع الفتح الإسلامي، وقد ظلّ الوجود الإسلامي مستمراً هناك على مدى قرون متطاولة، إلى أن انتهى عام 1492م، وقد كان هذا التصور حاضراً في أذهان الأوروبيين وهم يتجهون إلى المحيط الهندي، وقد لعبت قوى المسلمين الآسيويين في المناطق الساحلية والداخلية، ومخاوف الأوروبيين من التوسّع الإسلامي، أدواراً مهمة في المرحلة الأولى من الاحتكاك والتواصل بين الطرفين.

لقد كان هذا هو الموقف العامّ في بداية الحقبة التي نريد معالجتها في هذا الفصل. أمّا في منتصف القرن التاسع عشر (نهاية هذا الفصل): فإنّ الموقف كان قد تغير تماماً. كانت أسرة المينغ الصينية قد انهارت، وحلّت محلّها أسرة الكينغ التي اضطرت لفتح العديد من الموانئ أمام الأوروبيين، وكان الصفويون قد انتهوا وحلّ محلّهم في حكم إيران القاجاريون، كما كان آخر ملك مغولي قد فقد حقوق التقاعد التي كان أسلافه يتقاضونها من شركة الهند الشرقية البريطانية (1885م). أمّا الإمارات الصغيرة الباقية، فكانت عاجزة عن مقاومة ضمّها إلى الهند البريطانية، وهكذا فقد كان العثمانيون هم آخر إمبراطورية إسلامية متماسكة حوالي العام 1850م؛ لكنهم كانوا قد فقدوا مناطق شاسعة بالهزائم أمام آل هابسبورغ النمساويين (الذين انتزعوا منهم هنغاريا/المجر)، وأمام الروس (في أواسط آسيا والقوقاز وبحر القرم). وبذلك فقد صارت القوة

العسكرية والسياسية للأوروبيين رئيسةً في كلِّ مكان. وظهر نظامٌ اقتصاديٌّ عالميٌّ مركزه أوروبا، يشكّل تهديداً وتحدياتٍ ليست أقلَّ جسامَةً وعمقاً.

2. البرتغاليون؛

كان البرتغاليون أول من ركّز الجهود العلمية والعسكرية من بين الأوروبيين باتجاه آسيا، يليهم الهولنديون والإنجليز (البريطانيون بعد العام 1701م)، فقد كوّن كلٌّ من هؤلاء الثلاثة شركاتٍ للتجارة في آسيا. ومن المفيد القيام بقراءة موجزة لكل من هؤلاء، والمقاومة التي واجهوها من المسلمين. كان البرتغاليون إذن هم أول الواصلين، وفي الفترة من بدايات القرن السادس عشر وحتى بداية القرن السابع عشر كان نجاحهم واضحاً للعيان، فقد استطاعوا تركيز جيوب ومناطق للمراقبة في الموانئ المنتشرة على السواحل الإفريقية وحتى الصين. ومن هذه الموانئ موزمبيق وكلوا ومومباسا في شرق إفريقيا، وهرمز على مدخل الخليج، وكوشن وديو وغوا في سواحل الهند الغربية حيث قاموا بتأسيس مدينة بومباي. كما سيطر البرتغاليون على ميناء ملقة في عام 1511م، وحصلوا من مملكة المينغ على إذن بإقامة منشأة تجارية في ماكاو على مقربة من مدينة كانتون عام 1557م. وقد ذكر الرحالة الشهير فاسكو دا غاما أنّ مجيء البرتغاليين إلى المحيط الهندي ما كان في الأصل من أجل التوابل والفلفل، ولكن للبحث أيضاً عن أقرانهم المسيحيين. وقد تصوّروا وجود حاكم مسيحي في تلك المناطق الشرقية الغامضة أسموه القُس جون، وغدّى الوجود المسيحي بإثيوبيا والهند هذه الأسطورة. كما أنهم أرادوا البحث عن قبر القديس توماس والذي كانوا يعتقدون وجوده بجنوب الهند، حيث كانت هناك جيوبٌ مسيحية، وفي عام 1518م عثروا في الكروماندل على ما اعتبروه قبراً لأحد رسلهم. إنما بغض النظر عن مسألة الوجود المسيحي بالهند، فالواضح أنهم -بالإضافة إلى الهيمنة التجارية- أرادوا النيل من القوى الإسلامية المسيطرة في تلك الأصقاع. ولذا فإن هؤلاء التجار



الفاحين سرعان ما اكتسبوا في المناطق التي وصلوا إليها شهرةً سلبية؛ إذ قاموا في ملقة بممارساتٍ وحشيةٍ وإباداتٍ دفعت قسماً يسوعياً هو فرنسين زيفيه إلى استنكار ذلك بشدةٍ باسم المسيحية، والطريف أنّ هذا الانتقاد يشبه إلى حدٍ ما ما ذكره ابن ماجد في الميناء نفسه عن أقرانه المسلمين وتصرفاتهم قبل سنوات من الاحتلال البرتغالي. يبيد أنّ الفرص الاقتصادية الجديدة التي عرضها البرتغاليون دفعت أيضاً إلى أشكال من التواصل والامتزاج؛ فقد تزوج بعض البرتغاليين من آسيويات، وعاشوا معهنّ وكونوا أسراً ذات ثقافتين؛ من مثل ميكيل فيريرا السفير السابق لدى الصفويين، الذي استقر مع زوجته وأولاده على ساحل الكورومانل، في مكانٍ لا يبتعد كثيراً عن قبر القديس توماس، وكان يدير أسطولهُ البحري من السفن الناقلة من هناك.

كانت التجارة وظلت هي الهدف الرئيس من وراء هذه التحركات، وكانت هناك شركةٌ تجاريةٌ احتكاريةٌ برتغاليةٌ مقرها في لشبونة، وشارك التجار البرتغاليون أنفسهم بشركاتهم الخاصة في التجارة المربحة ومن ضمنهم بعض أفراد الأسرة الملكية. وكان الفلفل الموجود في جنوب شرق آسيا هو أكثر السلع رواجاً، رغم أنّ عائداته ما كانت شديدة الإغراء، وكان على السفن التجارية دفع رسوم مرور حتى لا تُحجز أو يُستخدم العنف ضدها، وقد تمت محاكاة هذا النظام من جانب الأوروبيين الآخرين، وبعض الآسيويين. وما أدت الرسوم غير الباهظة إلى تعويق التجارة ثم تبين أنّ المناطق شاسعة جداً، وأنه يمكن التهرب من دفع الرسوم والإضرار بالبرتغاليين؛ وبخاصة من جانب القوى والتجار الأوروبيين الآخرين. فالتنافسُ البحري جعل الاحتكار غير ممكن، وفشلت الشركات البرتغالية أخيراً؛ لقلة الدعم المالي والسياسي من البرتغال، والنقص الشديد في الأيدي العاملة.

3. الأوروبيون الشماليون:

صار الهولنديون والبريطانيون بين أهمّ القوى الفاعلة في منطقة المحيط الهندي في نهاية القرن التاسع عشر. وكان البرتغاليون والإسبان وقتها وحدةً

واحدة بسبب وحدة متولي العرش في البلدين (1580-1640م). وكانت السفن البرتغالية مسلحة، والحصون الساحلية جاهزة، ولذلك كان من المتوقع أن يكون المنافسون الجدد جاهزين أيضاً للحرب والتجارة معاً. وما اقتصر التنافس بين القوى الأوروبية على المحيط الهندي بل امتد إلى الأمريكتين وعبر المحيط الهادئ إلى مانيتا في الفيليبين. وما كان الأوروبيون الشماليون يقلون وحشية عن البرتغاليين. ونظم الهولنديون والبريطانيون أنفسهم من طريق شركات احتكارية أيضاً، وكانت الحكومة الهولندية تدعم تجارتها أكثر من بريطانيا، ونشأ نوع من التنافس بين الدول والشركات الخاصة، وصار من حق تلك الشركات تكوين قوات عسكرية وإنشأ الحرب وفرض السلام مع نهاية القرن الثامن عشر. وكان

**فالتنافس البحري
جعل الاحتكار غير
ممكناً، وفشلت الشركات
البرتغالية أخيراً؛ لقلة
الدعم المالي والسياسي
من البرتغال**

المراد من وراء ذلك تقوية الشركات في مواجهة البرتغاليين وليس في مواجهة الآسيويين. وقد عمد البريطانيون لمساعدة الصقويين في ميناء هُرمز ضد البرتغاليين عام 1622م، وعمد الهولنديون إلى الاستيلاء على ميناء ملقة عام 1641م، وصارت المياه الآسيوية مفتوحة أمام الجميع وبخاصة الهولنديين والبريطانيين، ومن بقي من البرتغاليين

انضم إلى الدنماركيين والفرنسيين. وهكذا فقد صار بوسع الحاكم الهولندي أن يصرح في العام 1619م بتفاؤله بكثرة السلع والمبادلات والفُرص للربح الكبير بسبب اتساع السوق فيما بين كوجارات بالهند وإلى سواحل سومطرة وموانئ الصين واليابان وسواحل بلاد العرب.

4. ثورات التجارة الآسيوية:

ما الأثر الذي تركه الظهور الأوروبي على الملاحة الآسيوية وعلى تجارة المسلمين؟ هناك خلاف قديم في الإجابات على هذا السؤال. هناك من ذهب إلى أن ظهور البرتغاليين عنى بداية للهيمنة الأوروبية. إنما هناك من يقول أيضاً:

إنَّ السطوة البرتغالية كانت ذات أثر محدودٍ باستثناء الاتجاه إلى الكاثوليكية، وإن كانت الانطباعات حولهم سيئةً جداً؛ لكنَّ حجم التجارة الآسيوية - رغم توجيه سفنهم إلى رأس الرجاء الصالح - بقي أكبر من تجارتهم بما لا يُقاس. أما أوروبيو الشمال فقد كان أثرهم أكبر من أثر البرتغاليين ولا شك. على أن نيلز ستينيس غارد يذهب إلى أن الهولنديين والإنجليز شجعوا التجارة الآسيوية، والحادثة المهمة في هذا الصدد تعاونُ الإنجليز مع الصفويين على طرد البرتغاليين من جزيرة هرمز في بداية القرن السابع عشر؛ لكنَّ هذا الميناء ما استعاد بعد ذلك مكانته بوصفه حلقة وصلٍ للتجارة بين الهند والخليج، وقد انتقل الزخم في البداية إلى بندر عباس ثم إلى مسقط في عُمان. إنما الحاسم في الأمر ما كان القوة العسكرية لأوروبيي الشمال بل دقة تنظيم شركاتهم بخلاف الشركات البرتغالية، وكانت الحكومات تدعم الشركات أكثر من دعم البرتغاليين لشركاتهم. وهذا فضلاً عن دمج هؤلاء للرسوم بأسعار السلع بحيث أمكن لهم تحقيق أرباح أكبر مع زيادة حجم التجارة، ثم إنهم أقنعوا التجار الآسيويين بالتحول من العراق البرية عبر سورية وإيران إلى الطريق البحري الآمن عبر رأس الرجاء الصالح. ولذلك فإنَّ ستينيس غارد يتحدث عن ثورة في التجارة الآسيوية، وقد اعتمد في استنتاجاته هذه على وثائق وكتابات باللغات الآسيوية، كما اعتمد بروس ماسترز فيما بعد بالنسبة للتجارة الحلبية، ويرى ماسترز أنَّ الثورة التي تحدث عنها غارد ما حدثت مفاجأة؛ بل بالتدريج منذ أوائل القرن السابع عشر حين أدخل الأوروبيون السفن التجارية، ثم السكك الحديدية في آسيا، وتساعدت أهمية التجارة الحلبية بناءً على هذه المتغيرات فيما بين 1620 و1750م. وفي ذلك الوقت ما كانت تجارة التوابل قد صارت بحرية، بل وتجارة الحرير أيضاً. وقد بقي هذا الازدهار ملحوظاً حتى القرن التاسع عشر رغم الاضطرابات السياسية في إيران. ومن المفيد تتبُّع تاريخ الشركتين الهولندية والبريطانية فيما بين العامين 1650 و1855م؛ فقد أفاد الآسيويون في تلك الفترة الحاسمة من وجود شبكات تجارية ولغات مشتركة، والمعرفة بطلب السوق المحلي ومصادر السلع، وكانت للهولنديين

محطاتهم التجارية المتعددة في مناطق المحيط الهندي، وكانوا مهتمين بتجارة جنوب شرق آسيا. وقد حاولوا التحكم في تدفق تجارة التوابل من جزر جاوة وسومطرة والملوك لمنافسة تجار منطقة آتشه. ومع ذلك فإن القرن الثامن عشر كان كارثةً على الهولنديين، بسبب ارتفاع الأسعار، والفساد. وبحلول العام 1799م أفلست الشركة الهولندية، وكان على الحكومة الهولندية أن تأخذ على عاتقها ديونها، وأن تتحمل مسؤولياتها الإدارية. أما البريطانيون فقد ركّزوا على الهند بدءاً بالبنغال، وتدخلوا في التجارة الداخلية أيضاً وليس في الموانئ وحسب. ومع ذلك فإن النفقات ازدادت عليهم في القرن الثامن عشر بما لا يقاس، بحيث اضطروا لتخفيض الأحجام أحياناً، مع زيادة النفقات العسكرية. فقد تصارعوا مع الفرنسيين، وكان عليهم مقاومة القرصنة، ودفع نفقات إدارية في المناطق التي سيطروا عليها وأداروها. وواجه العثمانيون صعوبات في الحفاظ على البصرة ومناطق بلاد العرب الشرقية، حين كان يساورهم القلق من تقدم الروس والنمسيين. وانتهى حكم الصفويين بإيران عام 1722م، وفقد المغول السيطرة على ميناء سورات عام 1730م، وانحصروا في محيط دلهي حوالي العام 1750م. وقد أرادت شركة الهند الشرقية البريطانية تعويض كل هذه النفقات بالسيطرة على حصة أكبر من تجارة المحيط الهندي، واستولت على سنغافورة عام 1815م، وأراد البريطانيون تعويض خسائر تجارتهم مع الصين ببيع الأفيون الهندي في ميناء كينغ الصين التاسع لكانتون، وعندما حاول الصينيون المقاومة لتحول الميزان التجاري لغير صالحهم، وللمشكلات الاجتماعية الكبيرة، وجدوا أنفسهم مطوّقين من القوات البحرية البريطانية المتفوقة. ووقعت عدن تحت السيطرة البريطانية عام 1839م، فصار لبريطانيا موقعٌ متميزٌ على البحر الأحمر، وواجه البريطانيون منافسةً شديدةً من الفرنسيين، فبعد هزيمة هؤلاء في الهند لجأوا إلى الموانئ الهامشية مثل موريشيوس، ثم تواصلوا مع أسرة البوسعيد للسيطرة على مسقط، وهذا في الوقت الذي كان فيه البوسعيديون يلعبون درواً بارزاً في تجارة شرق إفريقيا انطلاقاً من زنجبار وكلوى. وبعد استيلاء نابليون على

مصر عام 1799م اعترض البريطانيون رسالةً وديةً مُرسَلةً من بونابرت إلى حاكم عُمان، وفي عام 1800م أرسل عميل فارسي للبريطانيين رسالةً إلى العُمانيين ينصَحُهُم فيها بالتعاون مع بريطانيا والفرار من الفرنسيين. ثم إنَّ أكبر مسؤولي شركة الهند المستقر في كلكتا وزع رسائل دعائية ضد الفرنسيين الذين اتَّووا الدين، وجلبوا الفوضى والإخلال بالنظام إلى سائر مناطق العالم! وعندما تردد العُمانيون في قبول النصائح البريطانية، هدَّد البريطانيون بإغلاق موانئ الهند من مثل بومباي أمام العُمانيين، وبعد العام 1830م اتخذ حاكم عُمان زنجبار مقراً له، ووسَّع تجارته من هذا الطريق، إضافةً لمساعدة «إخوانه» في تلك الأصقاع، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، صارت مسقط ميناءً مهماً.

5. مقاومة المسلمين؛

لقد قوبل الدور الأوروبي في الملاحة البحرية الآسيوية بمقاومةٍ ومناهضةٍ من الآسيويين، والأمثلة الثلاثة التالية للمقاومة توضِّح التحدي الذي كان يواجهه عالم الملاحة الإسلامية، وكانت الحملة الأولى التي قام بها شعب المايلاس ضد البرتغاليين. والثانية هي التي قام بها مسلمو آتشيه في سومطرة. والثالثة قام بها تيبو سلطان مملكة ميسوري. عندما وصل البرتغاليون إلى مالابار أو كيرالا، كانت هناك أربع إمارات هندوسية في المنطقة لها أربعة موانئ. وقد اعتنق السكان الأصليون الإسلام، ويُطلق عليهم اسم المايلاس، وسيطروا على التجارة مع مسلمين آتين من المشرق واسمهم البارديسيز، وكانت معظم الصادرات هي التوابل، وقد تصاعدت أعداد ونفوذ المسلمين في منطقة المالابار بين القرنين التاسع والثالث عشر للميلاد، وقد سيطر البرتغاليون في البداية على تجارة الخيول العربية؛ لكنهم فشلوا في السيطرة على تجارة التوابل. وتحول المسلمون بتجارتهم إلى الكوجرات لتجنُّب البرتغاليين، وتحالف الحكام الهندوس مع البرتغاليين ضد المسلمين؛ لكنَّ هؤلاء استطاعوا الاستقلال بميناء كانانور، وظلوا يقاومون السيطرة البرتغالية ثم الهولندية فيما بعد، وتصدت منطقة آتشيه

للبرتغاليين الذين سيطروا على جزر الملوك الساحلية، وقد نجح البرتغاليون في البداية في طرد التجار المسلمين العرب والهنود، وساعدهم في ذلك الصينيون وهندوس التاميل؛ لكنهم أعادوا تنظيم أمورهم في ميناء جوهر في سنغافورة الحالية، واستطاعت آتشيه الصمود في المواجهة، واستعانت بالمماليك بمصر ثم بالعثمانيين وكانت لها روابط مع إيران. وشجّع الظهور البرتغالي والهولندي المسلمين في جزر جنوب شرق آسيا على زيادة تجارتهم المباشرة مع اليمن ومنطقة البحر الأحمر، وقد ازداد التوجُّه إلى الإسلام، وازداد الشعور بالتضامن

وبعد العام 1830م اتخذ حاكم عُمان زنجبار مقراً له، ووسّع تجارته من هذا الطريق، إضافة لمساعدة «أخوانه» في تلك الأصقاع

الإسلامي، وظهرت حركاتٌ لتتقية الإسلام من العادات المحلية. وحاول العثمانيون المساعدة؛ لكنهم لم ينجحوا كثيراً، وإنما نجح الآتشيون في الصمود. أما المثال الثالث لمقاومة المسلمين للأوروبيين فهو نموذج السلطان تيبو الذي حكم سلطنة ميسور في وسط الهند الجنوبي؛ أي: ما يقابل ولاية كارناتاكا في الوقت الحالي، وقد حكم

تيبو في الربع الأخير من القرن الثامن عشر بعد انهيار السيطرة المغولية، وكانت ميسور مغلقة لكنها تملك منفذاً إلى ميناء مانغالور، وكانت النخبة الحاكمة مسلمة؛ لكن السكان من الهندوس، وبعد مقاومةٍ شديدة وحروبٍ وانتصارات، استطاع البريطانيون السيطرة على عاصمة السلطان عام 1799م حيث مات في تلك الفترة.

لقد دخل الأوروبيون دولاً وأمماً إلى آسيا منذ مطلع القرن السادس عشر، واستطاع الآسيويون التجار المقاومة والتلاؤم والاستمرار، وهناك مسلماتٌ كثيرةٌ بشأن سيطرة الأوروبيين تتعرض في العقود الأخيرة للاهتزاز، وفي النهاية استطاع البريطانيون السيطرة؛ لكنهم ما استطاعوا اقتلاع الإسلام.